المحاضرة (05): النقد السيميائي

تمهيد:

تعد السيميائية من أكثر المناهج النقدية إثارة للجدل بخصوص منظومتها الاصطلاحية، وقبل الخوض في مفاهيمها، وتصوراتها يستوقفنا ما يطلق عليه من تسميات؛ ذلك أن التعدد فيها يكاد يكون مربكا أكثر من كونه واقعا مترتبا عن نقل المصطلح دون الاتفاق بشأنه؛ وإذا كان هذا حال باقي المناهج النقدية فإن الأمر يشكل ظاهرة تستحق المساءلة بالنسبة للمنهج السيميائي.

المبحث السيميائي:

تنحدر تسمية (Sémiotique) من الأصل الإغريقي (Sémeion)؛ بمعنى العلامات اللغوية وغير اللغوية، التي أصبحت لاحقا موضوعا لعلم جديد نشأ في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين أطلق عليه السيميائية (Semiotique) أحيانا، والسيميولوجيا (Semiologie) أحيانا أخرى؛ وقد نتج عن إسهام فكري مشترك أوروبي وأمريكي؛ على يد عالم اللغة السويسري فردينان دوسوسير (F. De Saussure) (1857-1913)، والفيلسوف الأمريكي شارلز سندريس بيرس (C.S Peirce) (1839-1914)[1].

من الواضح أن هذا العلم سيكون أوسع نطاقا في الدراسة مقارنة بعلم اللغة العام الذي يقتصر في تطبيقاته على دراسة العلامات اللغوية؛ من حيث خصائصها وعلاقاتها داخل النظام اللغوي الذي يشملها، وهذه أهم ميزة يمكن أن ينفرد بها هذا العلم الجديد.

وقد بشّر دوسوسير بنشأة هذا العلم في محاضراته حول علم اللسان؛ حين قال: «ونستطيع إذن أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي، وهذا العلم يشكل جزءا من علم النفس المجتمعي، ومن ثم يندرج في علم النفس العام، ونطلق عليه مصطلح علم الدلالة (semiologie) من الكلمة الإغريقية دلالة (semeion)، وهو علم يفيدنا موضوعه الجهة التي تقتنص بها أنواع الدلالات والمعاني، كما يهدينا إلى القوانين التي تضبط تلك الدلالات، ومادام هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع أن نتنبأ بمصيره غير أننا نصرح بأن له الحق في الوجود،

[1]- ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2007، ص93.

وقد تحدد موضعه بصفة قبلية، وليس علم اللسان إلا جزءا من هذا العلم العام. وإن القوانين التي سيكشف عنها علم الدلالة ستكون قابلة للتطبيق على علم اللسان»[1].

تمت ترجمة هذه الفقرة بأكثر من أسلوب لدى النقاد العرب، ولا تكاد أي دراسية لغوية أو نقدية تعنى بالمبحث السيميائي إلا وتشير إليها؛ ليس لأنها بشرّت بنشأة علم السيميولوجيا أو السيميائية بل أشارت أيضا إلى موضوعه، وكذا صلته بعلوم اللغة.

وفعلا تحققت نبوءة دي سوسير وحدث أن نشأت السيميولوجيا بوصفها علما للعلامات؛ وكان احتكاكها الأقوى بدراسات اللغوية ولهذا سرعان ما فرضت وجودها على أنها «إحدى علوم اللغة التي تدرس الإشارات أو العلامات وفق نظام منهجي خاص يبرز ويحدد الإشارة، أو العلامة اللغوية، أو التصويرية في النصوص الأدبية، وفي الحياة الاجتماعية»[2]؛ دون الاكتفاء بذلك فحسب بل وسعت دائرة اشتغالها لتشمل دراسة العلامات غير اللغوية؛ ولهذا كانت السيميولوجيا أعم من علم اللغة[3].

اهتدت السيميولوجيا بوصفها علما علاميا إلى وجود منظومة من العلامات غير اللغوية، التي تفرض وجودها داخل الحياة الاجتماعية، أو النظام الاجتماعي، وأنها لا تقل أهمية من حيث التأثير الدلالي، والقيمة التواصلية مقارنة بالعلامات اللغوية، وهذا ما دفع المبحث السيميولوجي إلى الاهتمام بالعلامة غير اللغوية واتخاذها موضوعا له.

والمقصود بعلم اللغة ما يشمله من معارف متخصصة في المبحث اللغوي؛ لذا فالسيميولوجيا – حسب هذا التصور – أعم منه؛ لكن السؤال المطروح قد يتعلق بصلتها بعلم الدلالة أكثر من غيره؛ إلا أنه وبالنظر إلى موضوعها كـ«علم يبحث في أنظمة الإشارات اللغوية وغيرها، الكائنة في المجتمع كاللغات الطبيعية، وإشارات السير أو الملاحة، وطقوس العبادة، والعبادات، إنه دراسة "لحياة الإشارات ضمن الحياة الاجتماعية"، هو أشمل من علم الدلالة (Sémantique)»[4].

[1] – فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، تر. عبد القادر قنيني، مر. أحمد حبيبي، أفريقا الشرق، الدار البيضاء، 1987، ص26.

[2] – سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص120.

[3] – ينظر: محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت.ط)، ص63.

[4] – إميل بديع يعقوب، وميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، مج2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، أيلول (سبتمبر) 1987، ص884-885.

ولا يقتصر موضوع البحث في السيميولوجيا على دراسة العلامة الاجتماعية فحسب، بل إنه يدرس كل مظاهر الثقافة، بوصفها أنظمة علامات في الواقع؛ والمنهج السيميائي يتقاطع مع الدراسات الأنثروبولوجية، واللسانية، والنفسية، والاجتماعية، بمختلف مباحثها[1].

وبغض النظر عن العلاقات التي تربطها السيميولوجيا بغيرها من العلوم والمعارف الإنسانية فإنها لاشك قد شغلت حيزا نظريا، ومجالا تطبيقيا واسعا في فرض مفاهيمها وتصوراتها، إلا أن سبيلها لم يكن ميسرا بما يكفي لتحقيق مقاصدها المسطرة؛ فقد أثارت الجدل مصطلحا ومنهجا.

التطبيق السيميائي:

لعل أكثر جزئيات المبحث السيميولوجي إثارة للجدل؛ ما تعلق منها بالممارسة الإجرائية التي يصعب تحديد منهجها بشكل واضح؛ «بسبب اتساعه وشموله الذي جعله يتداخل مع علوم كثيرة فيما يحسب أنه يشملها، فإذا ما طلبناه كعلم وجدناه يحوي الألسنية ويتبناها، ولكننا إذا ما استعنا به كمنهج نقدي وجدناه ينحسر على نفسه شيئا فشيئا ليكون أخيرا واحدا من مناهج الأدب التي ترتكز على الألسنية، وكأنه هنا لا يحتويها ولكنها تحتويه، وهذه الجدلية بين العلمين تؤدي إلى تأكيد كل واحد منهما وغرسه في الآخر، وليس إلى إلغائه أو نفيه بعيدا ... والسيميولوجية في هذا الشأن هي ند نقدي يعضد البنيوية ويتضافر معها في مسعى استكشاف النص ودراسته على منطلقات الألسنية ومبادئها»[2].

أدركت العلوم والمعارف منذ سابق عهد لها بأن المنهج سبيلها الأوحد لفهم الظواهر وإدراكها، وأن حدوث أي خلل في الممارسة المنهجية، يترتب عنه بالضرورة خللا أكبر على مستوى العمليات التحليلية التي تقوم بها، كذلك الحال بالنسبة للمبحث السيميولوجي، الذي عُني بضبط تصوره المنهجي في خضم تداخله بغيره من المباحث العلمية، فضلا عن أنه متميز في طبيعته؛ إذ يمكن عدّه علما من العلوم المتخصصة في قيامه على المرجع اللساني، كما أنه منهج نقدي خاص في تطبيقاته على النصوص الأدبية، يسير في اتجاه المنهج البنيوي جنبا إلى جنب؛ بحكم القاسم الألسني المشترك بينهما.

[1]– ينظر: سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني/ سوشبريس، بيروت/الدار البيضاء، لبنان/المغرب، ط1، 1985، ص118.

[2]– عبد الله محمد الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية (قراءة نقدية لنموذج معاصر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط4، 1998، ص44.

وبغض النظر عن مناطق اللقاء التي تجمع السيميولوجيا بغيرها من المعارف اللغوية، فإنها تتميز بكونها الأعم والأوسع في موضوعها على الإطلاق ممارسة وتحليلا، فضلا عن أنها استطاعت إثبات حضورها المنهجي القوي في دراسة النصوص الأدبية وتحليلها.

خلاصة:

إن اللافت للنظر في السيميولوجيا أنها وإن لم تتحدد معالمها كعلم واضح في مصطلحه ومنهجه منذ نشأتها؛ إلا أنها استطاعت فرض حضورها في مختلف مجالات البحث اللساني وغيره؛ دلالة على أنها تختص بقدر لا بأس به من الأهمية المعرفية في موضوعها، وكذا مقارباتها النقدية.